حسن الظن بالله

قال سبحانه فى الحديث القدسى:

٢ « أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن اقترب إلىّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن اقترب إلىّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » (١).

إن الحق سبحانه يريد أن ينبهنا إلى أن المفتاح فى يدنا نحن، فإذا بدأنا بالطاعة، فإن عطاء الله بلا حدود، وإذا تقربنا إلى الله تقرب إلينا، وإذا بعدنا عنه نادانا، هذا هو إيمان الفطرة.

فالله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة، ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده إلى الجنة أو إلى النار، ولذلك إذا وفيت بالعهد أوفى الله، وإذا ذكرت الله ذكرك، وإذا نصرت الله نصرك.

فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾. (البقرة: ٤٠)

وفى آية أخرى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾. (البقرة: ١٥٢)

وفى آية ثالثة يقول الحق:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾. (محمد : ٧)

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة. قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

إذن : فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام، فإن أردت أن يتقرب الله إليك ذراعًا ، فتقرب أنت إليه شبرًا ، فالزمام فى يدك. وإن شئت أن يتقرب الله منك باعًا، فتقرب أنت ذراعًا ، وإن شئت أنت أن يأتى ربك إليك مهرولاً-جريًا- فأت إليه مشيًا ، فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك: لا . استرح أنت ، أنا الذى آتى إليك.

لقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات فى اليوم ، ولكن هل منعك أن تقف بين يديه فى أية لحظة ؟ لا . بل ترك الباب مفتوحاً لك تأتيه وقتما تشاء، فإن الله لا يمل حتى يمل العبد.

وأنت فى حياتك العادية - ولله المثل الأعلى- إذا أردت أن تقابل عظيماً من العظماء فإنك تطلب منه تحديد ميعاد ، فإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض ، فإذا قبل فإنه يحدد الزمان ويحدد المكان، وربما طلب ذلك العظيم معرفة سبب وموضوع المقابلة.

أما الله سبحانه وتعالى - وله المثل الأعلى فى السموات والأرض- فإنه يترك الباب مفتوحاً أمام عبده المؤمن، ليلقاه العبد فى أى شيء ، وفى أى وقت ، وفى أى مكان ،وفى أى زمان.

حَسْبُ نفسى عِزاً بأنى عَبْدٌ   يَحتَفِى بِى بلا مَواعِيد رَبُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعزٌ ولكِنْ   أنا أَلْقَى مَتَى وأين أُحِبُّ

الزمام إذن فى يد من؟ إن الزمام فى يد العبد المؤمن.

فسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها فى يدك، وتستطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة.

وهو جل وعلا يوضح لك: استرح أنت وسأمشى لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعترينى تعب ولا عِيٌّ ولا عجز.

وكأن الحق سبحانه لا يطلب من العبد **إلا** أن يملك شعورًا بأنه يريد لقاء ربه.

إذن: فالمسألة كلها فى يدك، بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به، ولذلك يقول سبحانه:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ..** ﴾. (المائدة: ٥٤)

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد ، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات، حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له.

ولنا أن نلحظ أن حب الله قد سبق حبهم فى هذا القول الكريم : ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾؛ لأن هذه هى صفة الانكشاف للعلم، لقد علم الحق سبحانه أنهم سيتجهون إليه فأحبهم، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله.

وساعة تقرأ القرآن تجد أن الله يحب أصنافًا من الخلق ، قد أتوا بما يحبه الله من الأفعال والسلوك فى الحياة.

فيقول الحق سبحانه:

﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)** ﴾. (البقرة: ١٩٥)

ويقول : ﴿ . . **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)** ﴾ .

(البقرة: ٢٢٣)

ويقول: ﴿ . . **فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)** ﴾. (آل عمران: ٧٦)

ويقول: ﴿ . . **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)** ﴾. (آل عمران: ١٤٦)

ويقول: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)** ﴾. (آل عمران: ١٥٩)

ويقول: ﴿ . . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾. (المائدة: ٤٢)

هؤلاء جميعاً استحقوا حب الله لهم واستحقوا رحمة الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾. (الأعراف : ٥٦)

فالذى يحدد قرب الرحمة منه هو الإنسان نفسه ، فإذا أحسن قربت منه رحمة الله ، فالزمام فى يد الإنسان، فإذا كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان.

هذه هى رغبة الكريم سبحانه فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلاً للعطاء؛ لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.

واقرأ قول الحق: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾. (إبراهيم: ٧)

فالشكر هنا موجه من العبد للرب، والزيادة من الرب إلى العبد .

والإنسان حين يضع كل المسائل فى ضوء منهج الله، فالله شاكر عليم؛ لأن الله يرضى عن العبد الذى يسير على منهجه، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾. (يونس: ٢٦)

والحسنى : هى الجنة. أما الزيادة فقد قال المفسرون: إنها رؤية المحسن. فحب الله لعباده هو دوام فيوضاته على من يحب. هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ، ويتجلى عليه برؤيته.

والزيادة هنا زيادة تليق بمن زادها سبحانه وتعالى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾. (النساء: ٣١)

فأنت عندما تجتنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك فى مدخله ، فانظر إلى المدخل الكريم من الله وما شكله؟

ورسول الله ﷺ يقول: « **إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»[1] .

وبعض العلماء يرى فى قول الحق سبحانه:

﴿ **فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾. (البقرة: ٢٨٤)

أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، فإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات، وإن شئت أن تُعذَّب- وهذا أمر لا يشاؤه أحد- فلا تصنع الحسنات.

وهذا يعرفنا أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يُملكنا الزمام، وبمجرد إيماننا به فنحن نتلقى منه زمام الاختيار.

وهذا من مظاهر لطف الله سبحانه بعباده، فهو لذى إذا ناديته لبَّاك، وإذا قصدته آواك، وإذا أحببته أدناك، وإذا أطعته كافاك، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك، وإذا أعرضت عنه دعاك، وإذا قربت من الله هداك.

ولكن ما هو الذكر المقصود فى هذا الحديث القدسى؟

إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيرًا، فالإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨١) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب بن سنان الرومى.

أكنت ناسياً أم عامداً ، فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تُسمِّ ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل.

أما الإمام الشافعى فيرى : ما دُمْتَ مؤمناً ومُقْبِلاً على الذبح وأنت مؤمن فَكُلْ مما لم تذكر اسم الله عليه ناسياً أو عامداً ؛ لأن إيمانك ذكر لله.

فهل الذكر أن تقول باللسان؟ أو الذكر أن يمر الشئ بالخاطر؟

إن كنتم تقولون: إن الذكر باللسان. فلنبحث عن معناه فى هذا الحديث القدسى: « أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى،وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».

إذن: فقد سمى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً، وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال.

لذلك أقول: يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى الذكر؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال،وقد يظل خطوراً على البال فقط.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ .

(البقرة: ١٥٢)

أى: اذكروا الله فى كل شىء: فى نعمه ، فى عطائه، فى ستره ، فى رحمته، فى توبته.

فلتذكروا نعم الله عليكم وفضله ، فلا تنسوه، فلتعيشوا دائماً فى ذكر

مَنْ أنعم عليكم ، فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

ورسول الله ﷺ يقول:

« إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر،فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادى ؟

فيقولون: يسبحونك ويُكبِّرونك ويَحمدونك ويُمجِّدونك. فيقول: هل رأونى ؟ فيقولون: لا ، والله ما رأوك.

فيقول سبحانه: وكيف لو رأونى؟

قال: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة ، وأشدَّ لك تمجيداً ،وأكثر لك تسبيحاً.

فيقول: فما يسألونى؟

قالوا: يسألونك الجنة.

فيقول: وهل رَأَوْها ؟

قالوا: لا والله يارب ما رأوها.

فيقول سبحانه :فكيف لو أنهم رَأَوْهَا ؟

يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة.

يقول تعالى: فمِمَّ يتعوَّذون؟

يقولون: من النار.

فيقول: وهل رَأَوْها؟

يقولون : لا والله ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رَأَوْها؟

يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة.

يقول: أُشهدكم أنِّى قد غفرتُ لهم.

فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجته.

فيقول سبحانه: « **هم الجلساء لا يَشْقى بهم جليسهم**»(١).

والحق سبحانه يُعطينا مثالاً من حياتنا على حُسْن ظنِّ العبد به، فالحق سبحانه يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً.

وتجد أن الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون فى ضيق ؛ لأنهم فى حياتهم ساخطون على قدر الله ، فيجعل الله حياتهم سخطاً.

فمن وهبه الله الإناث تجده سعيداً، وكذلك عندما يهبه الله الذكور.

وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط ، فالزوجة تَحِنُّ أن يكون لها ابنة، وإن وهب الحق لأسرة ذرية من الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التى تقر بها العيون.

وأخيراً يأتى سبحانه بالقدر الرابع الذى يجريه على بعض خَلْقه ،وهو : ﴿ **وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً** ﴾. (الشورى: ٥٠)

لماذا يُسر الإنسان بقدر الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه سبحانه الذكور والإناث ؟

ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك؟

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٥٢، ٣٥٩، ٣٨٣) والترمذى فى سننه (٣٦٠٠) من حديث أبى هريرة.

إن المواقف الأربعة هى قدر من الله.

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها.

إنه سبحانه يخلق ما يشاء، ويجعل من يشاء عقيماً، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله ، فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو الذكور، أو بالذكور والإناث معاً.

ولو أن إنساناً - أو زوجين- أخذا قدر الله فى العقم كما أخذاه فى غيره من المواقف السابقة برضا، وحُسن ظنهما فى الله إلا رزقهم الله ،لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم فى الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربَّاهم غيرهم.